

دوره
وواقعه

مقاومة فلسطينية

بقلم الدكتور حسني محمود حسين

الذي نعيش فيه ، وليس له فيها الا الوسيلة واللسان . وهذه الخطب لها تأثير قوي في نفوس الناشئة وعامة الناس الذين يتحكم فيهم ، بدورهم ، أصفا الصبر والرضا على أية حال ، مما فيه دلالة الارتباط الحميم حتى مع الجهل والتخلف .

ونستطيع ان نقدر هذا الواقع الذي كان على الشاعر الفلسطيني ان يعيش فيه اذا وازنا بينه وبين واقع المجتمع الصهيوني الذي يعتمد كل الاسس العلمية في تنشئة الفرد ، وخلق الروح الجماعية والتعاون والنظام في المجتمع ليسير الجميع في اتجاه واحد ونحو أهداف محددة ومشتركة ، مما يعكس صعوبة المهمة التي تحاول الكلمة اداها في المجتمعات العربية عموما . واذا أضفنا الى ذلك كله ان مجرد احترام انسانية المواطن العربي ، كادنى حد من حقوقه الانسانية ، لم يتحقق بوجه عام ، وان اختلفت درجة ذلك التحقق ، في اي من الانظمة التي توارثت عليه ، أدركنا قسوة الامراض التي ظلت تنخر المجتمع العربي ، وفي فلسطين بخاصة ، وقد امتدت جنود هذه الامراض في اعماق المجتمع ، وازهرت على سطح الحياة فيه ، فجسدتها العصبيات وصراع الاحزاب والوجهاء ، وتبعية الحكام للاستعمار ، ولذلك كان الموقف الوطني يتحول في كثير من جوانبه الى الانشغال بامور ثانوية ومعارك جانبية تستهلك طاقة المقاومين وتستنفدها . ويتبين ذلك في عهد الانتداب وفي المنفى ، حيث يظهر الواقع في اقصى حالات الخداع والتضليل ، الامر الذي ساعد على افساد المعاناة ، واعان على زيها في معظم الاحيان ، بسبب ما يبدو فيه المجتمع من مظهر العروبة والوطنية ، بينما هو محكوم بالفعل لادوات الاستعمار والتخلف التي لا ترعوي عن تلفيق النهم والصفاء بالشعراء الوطنيين . وهذا الجو الفاسد كثيرا ما يخلق الاضطراب والحيرة في العواطف ، والارتباك والبلبلة في التفكير ، على عكس الجو الذي عاش فيه شعراء الارض المحتلة ، وقد تحدد العدو امامهم ، وقاسوا من ظلمه واضطهاده ، فوضحت امامهم الاهداف ، وانتظمت لديهم العواطف ، وتحدد التفكير فتبلورت معاناتهم في تمائل وانسجام ، وفي جو نفسي متماسك ونقي في عذابه وآلامه ، فجاءت سليمة صادقة ، واتسم شعرهم بما ينبعث فيه من حيوية وتأثير فاعلين .

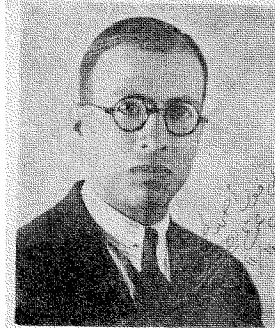
ويتبين دارس شعر المقاومة الفلسطينية احساس هذا الشعر بقضية الوطن ومشكلاته كلها ، وكيف حاول ، بطريقته الخاصة ، ان يستنبت القلق في مجتمعه ، وان ييث فيه الشعور يرفض الواقع وبعدم الاطمئنان اليه ، والطموح الى تغييره . ومن هنا يمكننا ان نقول ان هذا الشعر

يلاحظ الدارس ان شعر المقاومة الفلسطينية كان مرآة للحياة السياسية في فلسطين ، فقد واكب هذا الشعر تطور القضية الفلسطينية ورافق كل احداثها وسجل حقائقها منذ بداية الاحتلال الانكليزي للبلاد . وحقا لا يكفي ان يكون هذا الشعر تلك المرآة وحسب ، وان كان ذلك في حد ذاته ، ومن منظور الزاوية التاريخية ، وظيفه اداها في صورة او في اخرى . ومع ذلك فلا بد لنا ان نفتش عن دور آخر لهذا الشعر ، فيما اذا وجد ، أبعد من ان يكون تلك المرآة فقط . فهل كان له مثل هذا الدور ؟ وهل اداه في فاعلية ؟ وكيف كان تأثيره على قضية الوطن فيما آلت او ستؤول اليه ؟

ان شعر المقاومة الفلسطينية ليس هو السلاح العربي الوحيد في المعركة سواء قبل النكبة ام بعدها ، فبالاضافة الى هذا السلاح ، هناك اسلحة اخرى متعددة تتمثل في كل الوجود العربي في فلسطين ، ثم في كل الوجود العربي بعامة . وعلى رأس كلا الوجودين يأتي (الفارس) انعري نفسه ممثلا في الانسان العربي من ناحية ، وفي المجتمع العربي من ناحية اخرى . ونحن لا نقول ذلك لنبرر فشلا او نجاحا نقدره ، وانما لتتضح خريطة الموقف العام امامنا ، كي نحدد عليها موقع الشعر ودوره ، ونبرز واقعه وابعاده الحقيقية . فالانسان العربي ، ربما لم يتج له ، حتى الان ، الاعداد التربوي السليم ، فكل مناهج التربية والتعليم وريثة عصر الانحطاط الطويل ، ومحكومة بتوجيه الاستعمار او الانظمة الفاسدة على الاغلب . وبالإضافة الى ذلك ، فقد ظل هذا الانسان يخضع في معظم الاحيان لتأثير عناصر الضعف فسي التراث اكثر مما يخضع لتأثير عناصر القوة فيه ، وكلنا يدرك دور الحفاظ من التراث في تنشئة المتعلمين والمتقنين وتشكيل تفكيرهم . او لا نزال نحمد في الكاتب كثرة المحفوظ والتصميم والاقتباس ؟! والشعراء ، على اية حال ، من اولئك او من هؤلاء ، ظلوا طويلا يخضعون لهذا الحفاظ في تكوينهم الفني ، فانطبع كثير من انتاجهم بطابع الكليشيات ، مثلهم ، في معظم الاحيان ، مثل خطباء المساجد . ولا شك ان هذا النهج في عمومه ، قد اصل سمة اساسية في خلق الانسان العربي ، سمة الميل الى المثالية والابتعاد عن الواقعية والروح العلمية الى حد كبير ، ولذلك كنا نرى الشاعر او الفرد العادي ميلا دائما الى انتهاز سبيل الدرود والمبالغة في تفكيره ، فاذا نظم الشاعر في اي امر ، بدا كأنه ينقل من اندبوان العام وليس من لوح الوجود امامه او فسي نفسه وواقعه ، ودون ريب ، فلقد أعان على هذا الاتجاه في النشء اثر الخطب المسجدية التي تلقى بروح كل العصور السابقة الا روح عصرنا

التوطن والاقامة ، فقد ارتفع صوته مبكرا ليفضح هذه المخططات والاطماع (١) ، وذلك لاسباب متعددة قد يكون من اهمها الظروف الخاصة التي دخلت فيها بريطانيا فلسطين حليفا للعرب ومخلصا ومنقذا لهم . وهذا ، على الاعتب ، هو ما جعل شعر الفترة الاولى من الاحتلال حتى مطلع انتلابينيات ، يتوجه في معظمه الى مقاومة تحدي الخطر الصهيوني الذي احسه الناس اكثر مما احسوا الخطر الاستعماري وراوه كانه منفصل عنه . ومهما يكن من امر ، فلم تكن مهمة الشعراء ، في ظروفهم تلك ، سهلة او بسيطة ، فعدم وضوح الفكر والاهداف وخلخل الحياة في المراحل الاستعمارية من حياة الشعوب يخلق كثيرا من الصعوبات في وجه الفنان او الشاعر ، خصوصا في مجتمع يتوره كثير من امراض الحياة المزمنة ، ولذلك نرى ان بعض الشعراء قد انصرف همهم الى معالجة اوضاع المجتمع وما يسوده من تناقض واحقاد وصراع وعصبيات ، كان خيرا انهم هم لم يعرفوا في مستنقعاتها . ومع مسا نلمسه من التماعات فكرية لدى بعضهم احيانا، فربما لم يرق شعرهم الى مستوى التحديات التي فرضت على الوطن ، وما كان له ان يرفى في مجتمعه وظروفه وامام الاصرار البريطاني والصهيوني بكل ما لديهما من قوة وسلطة ومال سخرت كلها في خدمة اغراض سياسية ومخططات استعمارية مرتبطة باهداف واستراتيجيات دولية نحس ان بعض الشعراء تمكنوا احيانا من استشفاف اخطارها ، فانطبع شعرهم لذلك بطابع الالم والاسى والمرارة ، وعلى الرغم من اننا نعد ان هذا الشعر لم يكن في معنونه ان يوجه الاحداث ، فافتصر على متابعتها الى حد كبير ، فانه كان اسبق من (زعماء البلاد وسياسيين) في بلورة المقاومة وتحديد اتجاهها الصحيح ، كما كان اسبق منهم في كشف مخططات الاعداء واطماعهم ، وهم ، الزعماء ، لم يقصروا في اعانته وتمضيده لاداء مهماته وحسب ، وانما ظلوا عينا ثقيلا عليه وعلى الوطن ، مما افقده كثيرا من اثره ، واحبط كثيرا من جهد الحركة الوطنية الشعبية نفسها ، وعطل ، بالتالي ، الجزء الاعظم من طاقاتها .

وعرض شعر المقاومة الفلسطينية الى مسألتين جوهريتين فسي اساس الغزوة الصهيونية ، الهجرة اليهودية ، وبيع الاراضي . ومن الملاحظ ان اشعر الذي قيل في الهجرة وفي مقاومتها وكشف اخطارها قليل ، ويبدو فيه شيء من التناقض في موقف الشعراء امام هذا الموضوع . وتبدو يكون هذا التناقض امرا طبيعيا في ظاهره ، فالشعراء ، يخضعون ، من ناحية ، لموروثات عميقة الجذور تستهين كلها بجنس اليهود ، ولكنهم في نفس الوقت ، يلمسون الاخطار التي يخفق هؤلاء (المستضعفون) وطنهم بها . ولذلك لا غرو ان نجد الشاعر الواحد يستهين بهم مرة ويستعظم خطرهم مرة اخرى ، فهم اشقى امة ، وهم بغات الطير او غريابها ، ومع ذلك فانهم يهددون البلاد وطيرورها الجارحة . وقد لمس اشعراء عدة مظاهر من اخطار هذه الهجرة التي تحدى بالوطن ، وتوسلوا بعدة صور في تجسيد هذه الاخطار من اجل اثاره الجماهير وتحريضها ، فالهجرة تشبه رجل الجراد مرة ، والسيل العرم مرة اخرى ، ومرض السل مرة ثالثة ، وقد اصبح رجال البلاد امامها (نساوين) او غرياب (٢) . ولجأ (ابراهيم طوقان) بفنه الساخر الى ابراز الموقف كله ، حتى لقد ربط بينه وبين اخطار الطبيعة ونكباتها (٣) ، فربط بين طوقان السماء في الفيضانات التي لحقت بمدينة (نابلس) عام ١٩٣٥ ، وبين طوفان الهجرة اليهودية الذي طغى



ابراهيم طوقان



أبو سلمى

★ ★ ★

حاول ان يوظف في مجتمعه الشعور بالحياة ، وان ينبهه على اخطارها من حوله ، فكان له بذلك دور ابعد من كونه مجرد مرآة لحياة هذا المجتمع ، واعني بذلك عمله المستمر على تهيئة العوامل النفسية فسي هذا المجتمع لرفض واقعه وتغييره . ولكن الى اي حد نجح في هذا الدور ؟ وكيف كان تأثيره وفاعليته في قضية الوطن فيما آلت او ستؤول اليه ؟ لقد عبر احد شعراء المقاومة عن فعل الشعراء ، فشبهه بحرقه النمل ، وهذا تصوير دقيق فعلا ، فالواقع المادي لا يخضع بسهولة لرغبات الشاعر او الفنان ، وخصوصا ان الواقع الذي يتعامل معه هو واقع البشر والنفسية الانسانية الحيرة . ولذلك فان خمائر التحول التي يشارك اشعر في خلقها او تهيئتها في النفوس تكمن في داخل المجتمع وتعطي مفعولها في مهل . وهذا ، طبعاً ، ما يفسر لنا بدء التغيير وصعوبته في المجتمعات ، حتى في حال وقوع ذلك الانبثاق الهائل للارادة الجماعية ممثلا في الثورة التي تشبه ان تكون حمما للامة . وخمائر التحول التي كان شعر المقاومة الفلسطينية يشارك في خلقها او تهيئتها ، كانت دائما لا تجد المناخ الصحي لتفعل خلاله فلعلا في تهيئة النفوس وخلق الانسان المقاوم : ففي عهد الانكليز ظلت الكلمة تعوقها في الحقيقة قوى الواجهات في المجتمع الفلسطيني الى جانب ما جابهها من قوى الاعداء الاصلاء ، وكلها قوى مادية تدعمها امكانات القوة والتنظيم بما لها من اثر عملي ومؤثر في سير الاحداث وفي اضعاف قوى المجتمع الوطنية . ومع ذلك فان اشعر قام بدور بارز في مجابهة المخططات الاستعمارية والاطماع الصهيونية ، فنبه على تلك الاخطار وحذر منها ، ودعا الى مقاومتها ، فكان شعر توعوية وتعبئة على الرغم مما اعترى صوته من احساس الالم والحزن والمرارة في غالب الاحيان . ومع هذا الدور الذي حاول اشعر ان يقوم به ، فهل كان له الاثر المتوخى في مقاومة هذه المخططات والاطماع ؟ وهل نحس فيه مقاومة التحدي الذي فرض على الوطن ؟ وهل كان في مستوى هذا التحدي ؟

لقد اشرنا الى شيء مما كان يعتور حياة المجتمع العربي فسي فلسطين ويتحكم فيها دون ان يكون الليقظة القريبة العهد في نهاية العهد التركي اثر كبير فيها ، فهي ، على اهميتها ، لا تعدو ان تكون ململمة لم يتح لها ان تأخذ مداها الطبيعي لتفمر باشرافها جوانب الحياة الجماهيرية ، بسبب ما لاقته من تسلط الاعداء ومن قصور القوامين على شؤونها . وهي بالتالي جزء من اليقظة العربية في هذه المرحلة من حياة المنطقة ، دهمتها اخطار اعنى واشد من تلك التي اختصت بها بقية اقطار الوطن اتكبير ، فاجهضت فيها عنصر القوة واخبت انوارها . ولم يكن شعراء هذه الفترة ، على اية حال ، سوى ابناء هذا المجتمع ونبت ثقافته ، ومع ذلك فاننا نرى انهم حاولوا التصدي للاخطار التي دهمت وطنهم ، وان تأخر ذلك قليلا عن بدء الاحتلال ، كما تثبت النصوص الشعرية التي بين ايدينا على الافل ، فيما عدا شعر (وديع البستاني) اللبناني المولد والعشيرة ، الفلسطيني

(١) انظر ديوانه « الفلسطينيين » - طبعة بيسروت ١٩٤٦ - : ٩٨ مقطوعة (جنة اليهود) ، ٨٢ قصيدة (الدولة الرضيع) ، ٨٣ قصيدة (الخطبة الخرساء) ، ٨٧ قصيدة (الفتوى) ، ١٠٠ مقطوعة (الحكم الذاتي) ، ١٠٤ قصيدة (الرد على الرصافي) .



محمود درويش

سميح القاسم



في الكفاح المباشر ضد الانتداب البريطاني ، فقد اقتصحت تماما مواقف الحكومة البريطانية ، وانكشفت سياسة الانتداب في موالاتها الحركة الصهيونية وتبنيها مخططاتها واطماعها في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، فراح الشعر يكشف هذه السياسة وبين مساويء الاحتلال ويعلن رفض الانتداب والوصاية وما اتخذه التكنيز بالوطن من تكبات ، وغلب على صوت الشعر طبقة القوة والفضب ، وقد لعب دورا مهما في الهاب حماسة الجماهير وفي انضاج المفاهيم الوطنية لدى عامة الناس . ولم يكتف الشعر في هذه المرحلة بكشف الواقع فقط ، وانما بلغ ، وهو يعمل على تمهيد الطريق الى المستقبل ، حدا من الكشف والرؤيا ارتقى به الى درجة النبوءة الصادقة بفضل ما تحلى به الشعراء من وعي بالقضية الوطنية وبالثورات ، وقد لقيت كلها استجابة عامة من الشعراء الى حد الالتزام الواعي . ورأى الشعر في ثورة الشيخ (عز الدين القسام) طريق الحياة والفداء ، وقد مثلت ، بحق ، الاتجاه الى الاسلوب الثوري العملي في المقاومة ، وحددت هذه الانتفاضة ، برغم فشلها ، المنحى الاصيل ومعالم الطريق الحقيقية للنضال ، وغدت رمزا لتحركة الثورية الشعبية التي سادت فلسطين بعدها ببضعة اشهر ، حيث حمل شعراء الجيل الجديد المهمة الصعبة بتأديتهم رسالة الكلمة . . . وأدى بعضهم ، بالزاوجة بين الكلمة والسلاح دور المتقف الثوري الحقيقي ، فكانوا صورة صادقة للوجدان الفلسطيني المقاوم ، ولأمال شعبهم ومطامحه ، ولحقيقة عواطفه في حرارتها وتلهيها العنيف ، وغفوا بذلك شعراء المقاومة الحقيقيين ، اذ اصبح العمل السياسي الثوري بالنسبة لهم زادا يوميا ، كما اصبح شعرهم اداة من ادوات هذا العمل السياسي الثوري ، وبه رعدوا ثورة شعبهم وحدثوا على نوارها ، وجعلوا شعرهم حارسا لقيم الامة ، واداة وثيقة الاتصال بوعيها التاريخي ، وسجلا لمواقف الثورة واحداثها ، فجاءت دواوينهم (٨) تعبيرا وجدانيا عن اعزاز الوطن والناسي بامجاده وتاريخه ، واكبارا لنضال الشعب

(٨) اقرأ نماذج من هذا الشعر لدى :

- عبد الرحيم محمود - ديوانه (عمان ١٩٥٨)
 برهان الدين العبوشي - انيازك (مطبعة دار البصري - بغداد -
 - جبل النار
 عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) - المشرد (دمشق ط ١٩٦٣) .
 وديع الستاني - الفلسطينيين
 ابراهيم الدباغ - الطليعة ج ٢ (مطبعة حجازي - القاهرة .
 ط ١ / ١٩٢٧) .

بفضل وعد بلفور مهددا الوطن ومحيلا حياته الى كارثة من فصول لا نهاية لها . ولم ينس ابراهيم أن يضيف ، ساخرا ، ملمح الهجرة ، بشنل دمها ، الى ملامح ذلك الثقل الذي صورته في احدى مقطوعاته (٤) ، وجمع فيه كل مساويء الحياة في فلسطين تحت الاستعمار البريطاني ، فكان تصريحه بفرض الهجرة اليهودية يحمل ابعاء نابضا بثقل وطاقاتها وكراهة الناس لها ، واشتمزازهم منها و (انفلاقهم) من استمرارها ، ولربما كان ابراهيم طوقان اشاعر الوحيد الذي خص الهجرة بمقطوعة مستقلة قصرها على هذا الموضوع ، وكان فيها ذكيا في استغلاله الفكرة الشعبية المتداولة عن التشاؤم بالعدد ثلاثة عشر ، فقد جمع مأثور هذا العدد في التشاؤم ليجد أن العدد (١٠٠) (٥) يفوقه في سوءه ومصائبه اذ كان سدا الرقيم مندولا بكثرة في سجلات الهجرة اليهودية اشعرية بسماع سلطات الانتداب ، وغير اسرعيه من وراء ظهرها ، وان كانت عنها رضية . ومع ما كان ينبغي من النظر الانر عمقا وتركيزا الى هذا الموضوع الخطر، فهل كنا نتوقع ان يوقف الشعر الهجرة اليهودية؟ ربما كان لهذا الشعر حظ من التأثير في تنبيه الناس وايقاظهم على اخطار هذه الهجرة ، كما كان له مثل هذا الحظ في التنبيه على مفهوم الارض واهمية الارتباط بها ، وقد جسد من هذه الناحية احد هموم الوطن وبلاياها المتمثلة في مرض السمسة وسماسة بيع الارض ، حتى لقد خلق من هذه الفئة ومن حرفتها المهينة مفهوما خاصا متميزا لا يعرف ، بمدلوله الخاص ، في خارج فلسطين ، ولا يفوقه ، بايحاءاته كلها ، مفهوم اية لفظه من الفاظ اللغة في داخل فلسطين نفسها . ولم يكن سوى اشعر بقادر على أداء هذا الدور ، وخلق هذا التراث المنفر الذي لا تمحو الايام اثره او مدلوله من ذاكرة الشعب او من قاموس القضية (٦) . وقد سجل الشعر من هذه الناحية (تنبها وضيا مذهلا ، متفاعلا في الحقيقة ، اخذا وعطاء مع التنبه العام الشعبي الذي ادرك جيدا حقيقة المرامي الصهيونية البعيدة ، وتجاوز علاقته المادية القديمة مع الحقل والمزرعة ، الى مستوى علاقة حب وطني مع الارض ، عامر وصميم) . (٧) ومع كل ذلك ، فان دولايب الموقف العام في البلاد طمس كل هذه الآثار نحو هاتين المسألتين ، لانه كان اقوى فعلا منها ، وكان يسير في عكس اتجاهها ، فلم يتج لهذا الشعر اي مناخ صحي تنمو آثاره فيه .

وفي فترة الثلاثينيات ، انفترة الثورية في حياة فلسطين ، اذ اشتملت على اهم ثورات الشعب وانتفاضاته ، اصبح للشعر دور اساسي

- (٢) انظر وديع البستاني - الفلسطينيين : ١٢٧ قصيدة « حرب الاقتصاد » ، ١٥٧ قصيدة « يا رب اصلح » ، ١٨٣ قصيدة « فتنة المبكى » الشيخ سليم اليعقوبي - قصيدة « سياسة التفريق والتمزيق » - جريدة (الجزيرة) عدد ٤١ - يافا . ٢٢ حزيران ١٩٢٤
 (٣) ديوان ابراهيم (الطبعة الثانية - بيروت - دار الآداب سنة ١٩٦٦) : ٨٢ - مقطوعة « زيادة الطين » .
 (٤) مقطوعة « الى ثقيل » - جريدة « الدفاع » عدد ٢٥١ - يافا ١٧ / ٢ / ١٩٣٥ ، لم تنشر في الديوان
 (٥) ديوانه - الطبعة الثانية : ٧١
 (٦) انظر : ديوان ابراهيم طوقان - الطبعة الثانية : ٦٩ (السماسة) ، ٢٦ (الى بانقي البلاد) . وانظر كذلك الصفحات ٣٢ ، ٢٩ ، ٨٤ . وانظر كذلك برهان الدين العبوشي في ديوان جبل النار (الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة - بغداد ١٩٥٦) : ٢١ - قصيدة (بيسان) . ١١ - الرج الحزين .
 (٧) يوسف الخطيب - مقدمة ديوان الوطن المحتل (دار فلسطين - دمشق ط ١٩٦٨) : ٣٥

وابراز دوره وشحن عزيمته ، ووثائق تاريخية لهذا النضال نقرأ فيها احداث المعارك واخبار المظاهرات ، وتنظيم الشهداء ، وسير الاضراب والحث على مواصلة والاستمرار فيه ، وابراز دور الملوك والامراء العرب في ذلك الوقت وبتبين دورهم في وقف الثورة الشعبية وخسداد الجماهير .

واذا كانت القضية قد سارت الى المهوي التي اراد الشعر دفعها عنها ، فان ذلك لم يكن بسبب عجزه او قصوره الذاتي عن اداء وظائفه ومهامه الوطنية ، فنحن نحس ان شعر المقاومة في هذه الفترة يتسم بشيء من العنف لانه اصبح يرتبط بواقع ثوري الى حد كبير ، ففدا يمثل صوت الغضب والقوة ، وان لم يتجرد من سمات الالم والاسسى والمرارة التي رسم بها في المرحلة السابقة . ولئن كان السبب الاهم في رسمه بهذه السمات في المرحلة السابقة احساس الشعراء بما حاق بوطنهم من اخطار الصهيونية وبلاياها ، فربما كان سببه الاكبر في هذه المرحلة خيبة الامل التي طفت على الشعراء بسبب أزمة الزعامة والعمل السياسي في البلاد ، مما دعا معظم الشعراء الى الدعوة لنبذ هذه الزعامات واللجوء الى الشعب والاعتماد على عنصر الشباب فيه ممثلين في ذلك صوت الحكمة والواقع والضمير . وعلى العكس ، فان تجسد اخطار الصهيونية وافتتاح السياسة الاستعمارية البريطانية في هذه المرحلة اكثر مما كانت عليه في المرحلة السابقة ، قد اورثا الشعراء فكرة التبشير بالثورة والدعوة الى الجهاد والفداء ، وخلق الانسان النيتشوي الجبار ، فانتم معظم شعرهم لذلك بسمات الضف والقوة والغضب ، وقد اصبحوا يجدون امامهم نماذج من ابطال الشعب المثقفين والعاديين (القسام وفرحان السعدي وابو كمال ...) يقدمونها للشباب والوطن للفخر بها والسير على طريقها . وقد خاض بعض الشعراء تجارب النضال والثورة ، فاعتقل بعضهم ، وحمل السلاح بعضهم الآخر . ويمكن ، بحق ، ان يعتبر الشاعر الشهيد (عبدالرحيم محمود) نموذجا لشعراء هذه الفترة ، فقد جمع في شعره كل سمات المرحلة ودعواتها ، فكان صوت الحكمة والواقع والضمير ، اذ التقى لديه صوت القوة والغضب وهو يدعو الى الثورة ويخوض غمارها بنفسه ، وصوت السخر والتهمك وهو يدعو الى نبذ الزعماء المزيفين وبفضح مواقفهم ، وصوت الالم والاسسى والمرارة وهو يضع نبوءته بصير الوطن امام شعبه وامته . ولم يكن اصدق ولا اصفى من صوت عبد الرحيم ، فقد جسد فيه موقف المثقف الثوري الحقيقي ، وظل يتنهد دائما على الحياة المنظمة ، مثال المجاهد المؤمن المسك عنان فرسه ، كلما سمع هبعة طار اليها ، حتى لكانه ، يصدق حسسه ، كان يرثي نفسه من خلال ما رثى به احد زملائه الشهداء (٩) من قبل ان يستشهد هو على ثرى فلسطين بسنوات . وكذلك كانت المشاركة الجماهيرية فسي الاضراب الشامل الكبير ، كما سجلها الشعر ، نموذجا من نماذج المشاركة العامة في مقاومة التحديات المفروضة على الوطن . ولهذا كله لم يكن غريبا ان تتجسد في شعر هذه الفترة صورة الشعب وهو يعاني ويناضل ويتنرفذ دما ، فجاء الشعر لذلك نابضا بوجدان الجماعة ، ومثقلا بهمسوم الجماهير ، وكان لا بد له ، وقد التزم باهدافها ، ان يبعث فيها ، الى جانب تفجير نبض القوة والغضب والثورة ، مشاعر التحسب والقلق على المستقبل بسبب الاخطار الداهمة ، ليقوي لديها نبض القوة ، ويدفعها الى معالجة امراضها المتثقلة في زعاماتها بصورة خاصة . ومن هنا كان الالهام بالنبوءة بصير الوطن لدى بعض هؤلاء الشعراء (١٠).

(٩) انظر ديوانه : ١٣ - قصيدة « الشهيد » .

(١٠) انظر : ابراهيم طوقان - ديوانه (الطبعة الثانية) : ٨٦ ، وديوان عبد الرحيم محمود : ٤١ - قصيدة « نجم السعود » ، وشعر محمد حسن علاء الدين ، في كتاب (شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية - نشر نادي الاخاء العربي بحيفا - دون تاريخ) : ١٧ - قصيدة (شيخ الرحيل) انظر ايضا صفحة ٢٠ .

بفضل ما تحلوا به من وعي على القضية واستيعاب لابعادها . ومن ثم ومع تدهور اوضاع الوطن تضخم الاحساس بمصير البلاد لدى هؤلاء الشعراء ، ففختت في شعرهم نبرة الامل ، وطفقت سمة الحزن ، تخوفا من المصير المرتقب ، وان حاولوا ان يلفوا الطابع الحزين في لغائف من عظمة الامجاد والفخر بالماضي . ومع ما ساد فلسطين من صدامات ومعارك بين العرب والصهيونيين بعد الحرب العالمية الثانية ، تحولت نبرة الشعر الى الصراخ والاثارة والتحريض على القتال . ولكن ما ان لمت المؤامرة بتسليم البلاد الى العدو ، وافتضح في هذه المؤامرة دور الملوك والحكام العرب بخيانتهم القضية وتبعيتهم للاستعمار ، حتى استحال هذا الشعر حمما من الحقد تنصب على هؤلاء الملوك والحكام ، والسنة غضب تدعو الى خلعهم والانتقام منهم .

وفي المنفى ، حيث رفع الستار عن الفصل الاول في مسرحية (الخروج الكبير) التي (قدر) فيها ضياع الشخصية الفلسطينية وتمزقها استحكمت الحيرة وسيطر الذهول على (اللاجئيين) بضع سنوات انقلبت حياتهم خلالها وبعدها الى حياة ذل وجحيم ، ظلت معها الحدود التي مزقت عندها بلادهم بين الدولة الصهيونية وجاراتها دامية باستمرار ، ينزف منها دم الشعب الفلسطيني بخاصة ، من جراء اعتداءات (اسرائيل) طوال الخمسينيات والستينيات ، فقد ظلت هذه الحدود قطعة من اللحم الادمي الحي يعان نرف الدم الدائم عن استمرار الحياة فيها والاستعداد لاعادة نسيج الحياة العربية في الوشائج التي تقطعت بسكاكين النكبة .

وفي ظل هذه الحياة الكثيبة كان على الشعراء الفلسطينيين ان يؤدوا شعرهم مهمات جديدة لشعبهم المشرذم القهور ، فقد اصبح لزاما على الشعر ان يتحول من الموقف البنائي المحض للشخصية الفلسطينية الى موقف الدفاع عنها وانقاذها من مشاعر القلق والتمزق والانحلال في ظل الحصار والواقع القاسي الذي فرض على اللاجئيين ان يعيشوه . وبمعرفة الواقع العربي الذي قدر ان يكون منفي هذه الشخصية ، نستطيع ان نقدر مدى التناقض الذي كان لا بد لشعر المقاومة ان يعينه مع هذا الواقع متمثلا في قوى الانظمة المتحكمة فيه ، خصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار مخططات الصهيونية والامبريالية العالمية التي تجند لها طاقات علمية ومادية هائلة من اجل تنفيذ سياستها وتحقيق اهدافها في قتل الشخصية الفلسطينية التعمد وامانة قضيتها والتخلص منها عن طريق مشروعات توطيس اللاجئيين التي ظلت هذه القوى تداب في الحياح على تطبيقها وتنفيذها . وبهذا نستطيع ان ننخيل صورة الواقع الزائف الذي قدر لشعراء المقاومة ان يعيروه وان يشرروا شعرهم فيه ، وهو واقع تخلخلت فيه المفاهيم والعلاقات في الحياة التي كان لا بد ان تنتقل عدوى امراضها الى هذا الشعر في صورة او في اخرى . وعلى الرغم من ان هذا الواقع قد حال بين العمل الوطني او القومي وبين العدو الحقيقي ، بحيث عزل شعراء المنفى عن ميدان الفعل الذي يعني الكلمة بمدلولات الحركة والحيوية ، ومع كل ما لحق شعرهم من امراض الواقع العربي المهين ، ومع ما يحمله من مظاهر الضعف الفني احيانا ، فربما ظل هذا الشعر من اكثر مكونات الصورة صحة واشراقا ، ومن اقواها على الفعل والتاثير . ومن هنا نستطيع ان نقدر صعوبة الدور الذي كان لا بد ان يلقي على عاتق الشعر في هذا الواقع الذي يجب الان نسي اثر التقاليد والظروف الخارجية البليدة وسيطرتها القاهرة فيه ، الامر الذي ظل يشعل الصراع العنيف بين عقل الانسان وعواطفه ، كما ظل يعمق الانقسام بين الكلمة وبين الفعل في هذا المجتمع المريض ، مما زاد في صعوبة المهمة وبطء مفعولها . ونحن اذا كنا نتحدث هنا عن شعر المقاومة الفلسطينية ودوره في هذه المهمة ، فاننا لا نقصد ان نقصر هذا الدور عليه وحده دون سواه من عوامل التغيير في الحياة العربية ، ومنها الشعر العربي

نفسه ، وانما نركز هذا التركيز على شعر المقاومة الفلسطينية جريا مع البحث الخاص بين ايدينا .

ان المطالب الطبيعية التي ظلت تسيطر على اذهان الناس وتطفي على تفكيرهم ، وتشكل مادة احلامهم ، هي العودة الى فردوسهم السليب . ولكن الواقع العربي بانظمته المتآمرة وحكامه الخائنين ، ظل يقف حائلا دون اية حركة في هذا الاتجاه ، فهم ، بالإضافة الى خياناتهم ، مرتبطون باتفاقيات هدنة مع العدو من ناحية ، ومسخرون لخدمة اغراض الاستعمار الذي يسيطر عليهم ويوجه سياساتهم من ناحية اخرى . ولذلك لم يكن اي عمل فلسطيني او عربي على مستوى الشعب والجمهير ليستطيع ان يجابه العدو الاسرائيلي مباشرة ، حتى ولا العدو الاستعماري الرابض بنفوذه على الارض العربية ، الا من خلال الاصطدام بالسلطة العربية في هذا البلد العربي او في ذلك . وهكذا ، فان الانظمة العربية ، بالإضافة الى ان ايا منها لم يكن في مقدوره ان يفكر او يخطر في باله ان يفكر جديا في الاستعداد لتحرير فلسطين ، فانها كانت درعا واقية تحمي العدو من اي عمل شعبي ضده ، بل ومثلت في هذا السبيل دور اجهزة مخابرات تمنع اي تفكير في مثل هذا العمل ، فتلاحته وتقمعه في مهده . ومن هنا كان لا بد لاية حركة وطنية فلسطينية من الاصطدام بانظمة الحكم العربية ، وقد فرض هذا الاتجاه وساعد على التحكم فيه ان الفترة اللاحقة على النكبة كانت فترة نضال شعبي للتحرر الوطني من الاستعمار ونفوذه في كافة انحاء الوطن العربي . ولما كان العرب الفلسطينيون قد توزعتهم (المنافي القومية) في انحاء الوطن الكبير فقد وجبوا انفسهم بشكل طبيعي ينخرطون في الحركات العربية القومية للعمل على تحرير البلدان العربية ، ولذلك كان الاصطدام محتما مع هذه الانظمة ، حيث تقف عمليا في صف الاستعمار المؤيد للصهيونية وخالق دولتها ، لان التفكير بتحرير فلسطين لا بد له الا ان يكون من خلال تحرير البلاد العربية التي تقف حكوماتها درعا تحمي في صورة او في اخرى ، دولة العدوان على الارض العربية الفلسطينية ، فلا تستطيع المجابهة مع العدو او المساس به الا من خلالها ، وبهذه المثابة ، فنحن نعتبر شعر النضال الفلسطيني في منافي اصحابه شعر مقاومة ضد العدو الاسرائيلي وضد وجوده، لتوحيد هذا الوجود حقيقة على وجود الاستعمار الذي يرعاه ووجود الانظمة العربية التي تساعد على حمايته ، ولانه بالتالي يقف في خدمة القضية وفي صفها . ومن ناحية اخرى ، فان ظروف القضية الفلسطينية في هذه المرحلة قد اختلفت عن المرحلة السابقة فقد استمات كل اعدائها في وضع حد لها ، بتذويب اصحابها وتوطينهم ، وادخال الياس الى نفوسهم من امكان العودة الى ديارهم، ورافق هذه المخططات جو الارهاب العربي المعهود الذي اختص فيه الفلسطينيون بالحجر الكامل على كل تفكير بقضيتهم الا ما كان متمشيا مع مخططات الحكام . ولذلك فقد وند كل عمل او تفكير وطني حقيقي في القضية ، فلم يرتفع اي عمل رسمي او شعبي الى مستوى الجذ والسؤولية نحوها ، بغض النظر عن كل ادعاءات الحكام وخطبهم واعلاناتهم التي لم يقصد منها في اية فترة الا الاستهلاك المحلي وحسب . ومن هنا وجد الشاعر الفلسطيني نفسه مضطرا ، في غالب الاحيان ، الى ان يقتصر في معظم شعره على فضح الحكام الخائنين ومهاجمتهم واعلان النعمة عليهم ، وعلى تصوير نية اللاجئين واشجانهم وواقعهم البائس بعرض صور المناسة وحياتهم في مخيماتهم ، وبكاء البلد الضائع وعلى بث روح الاحتمال والامل ، وخلق العزم والتفاؤل لدى ابناء وطنه استعدادا للجولة الثانية التي لا بد منها كما تحتم فئاعات الضمير الشعبي وطباع الامور من نحو ، واطماع العدو من نحو اخر . وقد ساعد هذا الشعر على لم شظايا الشخصية الممزقة ، وتربية اجيالها

وتفديتها بالحقد المقدس على كل اعداء الوطن ، حتى من خلال رومانتيكيته وخطابيته بكل آثارهما المحدودة والقصيرة الامد ، وادى دورا حميدا في الاحتفاظ بآمال الناس يانعة ، وفي قتل بذور الياس والقنوط التي حاول الاعداء بذرها في نفوس الناس بكل الوسائل ، فخلق روح الصمود والتمسك بالحق في الوطن السليب . ووجد الشعراء في ذكريات الماضي في الوطن ، اغلى ما حمله اللاجئون من ديارهم ، خير ما يبقي على الرباط الوطني المقدس الذي يحاول الاعداء فصمه وان يعين الزمان على نسيانه . فهذا الماضي ، بالنسبة لشعب تخلخلت اسس حياته ، وفقد كل شيء حتى هويته، هو سر هذه الحياة لانه المصادم الرمزي للوطن والكيان اللذين فقدتهما . فالحقيقة ان حياة هذا الشعب تدور كلها في فلك هذا الماضي وفي نسيج ذكرياته واحلامه التي لا تياس ولا تنضب، بل هي التي تنضج فيه ، على الدوام ، حلم العودة . وهذا الماضي ، ان كان مهما بالنسبة للاجيال التي عاشته ، فهو بنفس المقدار من الاهمية . ان لم يكن اكثر اهمية ، بالنسبة للاجيال الطالعة من ابناء فلسطين ، فمن خلال ماضي آبائهم واهليهم تعرفوا على وطنهم الذي لم يروه ، ومن خلال صور هذا الماضي واحاديثه انتصبت في اذهانهم صور الوطن، وتجسدت معالم القرية او المدينة او البيت او البيارة او الشاطيء الذهبي . وهذا ، حقا ، امر مهم بالنسبة لهذه الاجيال ، خاصة وهي لا تجد في منافيتها التربية الوطنية المخلصة ، ولا الاعداد السليم للعمل الوطني المجدي . فبمقدار ما يمكن ابقاء هذا الماضي حيا وفاعلا لدى الاجيال ، بمقدار ما يمكن الاحتفاظ بحلم العودة مهما تمر الايام ومهما تتكالب مخططات الاعداء . (وليس سوى هذا الماضي والتعلق به، يفسر لنا اصرار الشعب العربي الفلسطيني على العيش في الخيام حتى الان . وليس سواه يوضح لنا كيف تحول حلم العودة الى ارادة وفعل تجليا في ولادة حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة واشعال جذوتها) . وهناك من لا يرون اي خبر في شعر الحنين هذا وفي بكاء الدبار والتحسر على حياتها وماضي اهلها فيها .. ولكن هل كان من الممكن ان يغف الفلسطينيون عن اي عمل ، او يصعدوا عن اي تفكير في عمل يرتفع الى مستوى قضيتهم ، ثم يمنعوا حتى من احياء ذكرياتهم في وطنهم الذي طردوا منه ، وليس لديهم اي سبيل اخراقوى منه؟! حقا قد لا يرقى هذا الشعر في تأثيره ووقعه الى مستوى شعر المقاومة من خلال جو عمل وطني صادق وفعال ، ولكننا ، وقد فقدنا هذا الجو واي نوع من العمل فيه ، فانه كان لا بد من خلق باب اخر نحافظ عن طريقة التسرب من خلاله على العلاقة الحميمة بالوطن والارض . فكان الاحتيايل بالرحيل الى الماضي وذكرياته، حتى عبر حلم العودة ، محور المشاعر الفلسطينية وممجة حياة الشعب الفلسطيني التي الهمت ادبه في المنفى ، والشعر منه بصورة خاصة، وانضجت في اجياله حلم العودة . ونحن نقدر انه من الطبيعي ان يرافق هذا النوع من الشعر عناصر وهن من القلق والحزن الدامع والبكاء الفاجع ، ولهذا فاننا نميز هذا النوع من الحزن من سواه من الحزن الباسل والالم الصلد حيث تظل المقاومة مهما في الطبيعة الانسانية « علة للتوازن ، ومفتاحا للتفاؤل والتطور ، وودا غريزيا عن النفس من غوائل الضعف والجمود والتدمير » ، اذ ان « الحظر الذي يشف المقاومة الانسانية او يعرقل دورها هو القلق لانه صراع التدمير وليس صراع الحيوية التي تسيير في طريق معروف كما في صراع المقاومة » (١١) . ولهذا ، فربما كان هذا النوع من الشعرا جدي واكوى اثرا من شعر المناسبات والحماسة والانفعال الهائج والصوت المجلجل الداوي الذي يمتد ارتفاع النبر والانزمام الى الماضي الموهوم

(١١) عبدالعزيز مصطفى - مجلة دراسات عربية ، عدد ١١ سنة

٣ (ايلول ١٩٦٧) : ٤٦ . من بحث « المقاومة في القصة الواقعية » .

الحركة دار البحث عن الشخصية الفلسطينية التي اتسقت مع وجهها العربي في نسيج واحد ، فولدت بنكبتها بعث الأمة من ناحية ، وتخلقت هي بدورها في هذا البعث من ناحية أخرى ، وتجسدت معه من جديد وبلغ من صدق هذه الصلة والاخلاص في الالتزام نحوها ، ان ظلت هذه الشخصية ، ممثلة في بعض انبائها الشعراء ، تنبه من عواقب ضعف الأمة ومن سياسات حكامها المرتجلة ، فنقرأ في افكار هؤلاء الشعراء وفي شعرهم الحدس (١٣) بهزيمة يونيو ١٩٦٧ .. نبوءة مبعثها الاخلاص للامة وصدق الالتزام نحوها . وبعد ان هبطت الكارثة بثقلها الرصاصي على النفس العربية فهديتها ورضختها ، لم يكن قادرا على الوثوب من بين الانقاض غير الشخصية الفلسطينية وقد ارتخت عن عنقها يد الانظمة العربية القيود ، فهبت هذه الشخصية واقفة على قدميها ، انبل وانقى ظاهرة عربية بمهت الدفء الى ضمير الامة ، وانارت امامها مشعل الامل .. فكانت اعمال المقاومة المسلحة صفحة من وجه هذه الشخصية ، وكان شعر المقاومة الصفحة الثانية لهذا الوجه المشرق .

ويمكننا القول ان هذا الشعر يعتبر ، بالطبيعة مكمل لشعر الارض المحتلة الذي تركز ، في اكثره ، على دعوة الصمود وانتظار الامل المنفيين . وهذه الدعوة في ظروفها ، لا تقل اهمية عن ارهاص شعر المنفى بالثورة ، وقد اداها شعراء الارض المحتلة منذ مطالع الخمسينيات بنجاح كبير ، فبعد وقوع النكبة وحدث (الخروج الكبير) وقيام الدولة الصهيونية على جزء من ارض فلسطين عام ١٩٤٨ ، تحقق اول احتلال في تاريخ البشرية كان فيه الفاي المحتل اكثر عددا من السكان الاصليين ، فقد أقام الصهيونيون على ذلك الجزء من ارض فلسطين مجتمعا صهيونيا كاملا ، بمد ان طرد اهل البلاد عدا تلك الاقلية الضئيلة منهم التي كان من حسن حظها ان ظلت تنسب بالارض تشبث صخورها بها، فلم يشرودوا الى المنافي لبرمهم (اخوانهم) في قيعان الجباب يستنبتون الاحزان مكرهين ، ويجارون بلهات الحياة .. او الموت ، ولكنهم بدلا من ذلك ، اخضعوا فوق ارض الوطن لارهاب الحكم الصهيوني ، اذا كانت الدولة الصهيونية الوليدة تعرف تماما حقيقة تعارض آمال الاقلية العربية مع آمالها ، استقلت من ناحيتها بتطبيق شعارها الاساسيين اللذين بنت اركانها عليهما ، احتلال الارض واحتلال العمل ، فقد تزوج ، منذ البداية ، جانب الاضطهاد الذي تدفقت شلالاته على الإنسان العربي في ظل هذه الدولة ، الاضطهاد القومي والاضطهاد الطبقي . وبذلك تعرضت الشخصية العربية الفلسطينية في الارض المحتلة الى شتى صنوف القهر والسحق في محاولة جادة من السلطات الصهيونية لابطائها وتوحيها ، فكان الحكم العسكري الذي فرضته هذه السلطات بمثابة الجبل الذي قيده به حركة هذه الشخصية وخنقت انفاسها لتوضع تحت عدسة الملاحظة وفي بؤرة الملاحقة . وزادت على ذلك سحب الارض من يدها ومن تحت اقدامها ، ومحاولة غسل دماغها من ثقافتها وشعورها القوميين ، ولجات في سبيل ذلك الى عدة وسائل واساليب . ولما كانت الارض الهدف الاول والاهم في برامج الحركة الصهيونية منذ تاسيسها ، ولما كانت غالبية الاقلية العربية من الفلاحين واهل الريف الذين تشكل الارض والقرية اساس حياتهم وكل وجودهم ، مما يتعارض مع اطماع الصهيونية ومخططاتها من استملاك الارض ، فان السلطات الصهيونية ظلت تعمل على فصم الوشائج المتينة التي تربط العربي بالارض ، وعلى تاسيس علاقتها هي

او الغيب المجهول ، ويركن الى المبالغة ، حيث يفرغ بذلك الوعي ، ويجعله خاويا ، اذ هو لا يعنو الاذان في معابره ، على عكس النوع الاخر من شعر الذكريات المشوب بالحزن المتفائل الصلب ، لا الحزن الهارب الهش ، حيث يترسب في اعماقنا ، ويستنقظ التفاؤل الواعي الذي هو التعبير الحق عن الايمان بالمستقبل والامل في الخلاص ، وبمثله يمكن بناء الانسان روحيا ونفسيا ، فيحيله من جذوره الى انسان جديد . وعلى هذا الاساس فنحن لا نعتبر شعر الحزن والشجن سلبيا دائما ، فقد يمكننا به ان نثير الحمية بعرض الفاجعة ووصف النكبة ورسم المأساة وحياتها في شعر وصفي مؤثر ، يجسد النعمة والسخط على الحكام الخائنين ويلور الايمان والثقة والامل في العودة . وهذا النمط من الشعر هو الذي كان يمكن ان يؤثر في جو الهمود النفسي والعزلة والقنوط الذي فرض على جيل كامل منا ان يعيش فيه ، وهو النمط الاقرب الى مفهوم المقاومة في هذا الجو ، وما عداه استحال بسهولة الى ذلك النمط الذي يعتمد التهريج والانفعال العاطفي الذي يرضي الحكام ويوافق امزجتهم ، ويداعب في سذاجة ، الامال الشعبية .

ومع كل ما في هذا الشعر من مساوئ وقيم فنية قاصرة ، فيجب ان ننسى ما حصن به النفوس ضد الياس والانهيار ، وما اشاعه فيها من روح الامل في العودة ، وما ظل ، باستمرار وتوجع ، يشبه من وعي اعطى به الامة ، بالاضافة الى ما لديها من تراث وحضارة ، قوة الصمود والاصرار ، وبرز فيها ارادة العناء والتحدي ، حتى لقد ظل يرهص بالثورة الشعبية الفلسطينية التي غنى لها طويلا حتى وهو لا يزال يبحث عن الشخصية الوطنية لشعبه من خلال شعر النكبة والذكريات لانهاض ماضي الوطن في الازمان ، كي يتسنى للاجيال ان تتذوق طعم الحاضر لتتبرم عليه ، وان تشوف ابعاد المستقبل لتقدر مسؤولياته ، ولكي يتسنى لها ايضا ان تعرف على نكهة التراب الفلسطيني وتستششق عبيره في هذا الشعر ، لتعيش بهدف الالتحام بالارض التي لم يستطع الشعر الفلسطيني يوما ان يتحرر من كابوسها . وهكذا فقد خضع شعر المقاومة في المنفى الى كابوس الارض الفلسطينية كما خضع الى كابوس نكبتها بكل افعالها ، حتى ليمكننا ان نقول انه شارك في افشال هدف العدو في هذه المرحلة في قتل القضية بتحقيق الصلح مع العرب وفرض اعترافهم الشرعي بالدولة الصهيونية . واكثر من ذلك ، فان هذا الشعر في مجموعته قد شارك في العثور على الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، وتلمس ملامحها بنيد ما لحقها من اذلال وهوان ، ويلم شتاتها وتصبثها بالحق المفسد ، وبأبراز ما ظل يؤرقها من شعور الاغتراب والاحساس بخيانة الصمت الذي فرض على القضية طول سنوات المنفى ، وبما تبته من روح القوة والامل والصمود ، الامر الذي دأب به على الارهاص بالثورة وخلق انسانها في المخيمات . ومع العمل الفلسطيني المسلح تجسدت الشخصية الفلسطينية التي دعا شعر المقاومة الى البحث عنها ، في كامل صفات المقاوم الفادي الذي قتل ذلك الصمت (١٢) ، لتتم بانطلاق اعمال المقاومة ، بقظة تلك الشخصية الحقيقية ويتجسد الاحساس العارم بها ، الامر الذي اعاد الى الكلمة شيئا من دم الحياة على الرغم من ان الجو العام ظل خانقا من حولها . ولم يكن البحث عن هذه الشخصية ولا العثور عليها مقطوعي الصلة بالحركة القومية ، فقد شارك شعر المقاومة الفلسطينية في حركة التحرر العربية من خلال مشاركة الفلسطينيين العامة في هذه الحركة بدافع الروح الواحدوي القومي فيهم . ومن خلال هذه

(١٢) اقرا نموذجا من ذلك ما كتبه الشاعر يوسف الخطيب في مجلة (المعرفة) عدد ٤٩ ، السنة ٥ (اذار ١٩٦٦ - دمشق) : ٢٣٥ وما بعدها وكذلك قصيدة «الطوفان» للشاعر عبدالرحمن غنيم ، وقد نشرت في مجلة (الآداب) عدد ٥ (مايو ١٩٦٧) : ٣٧

(١٢) اقرا لخالد ابي خالد قصيدة « قتلنا الصمت » في مجلة الآداب عدد ٩ (بيروت - ايلول ١٩٦٥) : ٣٠ - ٣٣ وقصيدة « الشرد والحصاد » في نفس المجلة عدد ١٢ (كانون اول ١٩٦٦) : ٢٨ - ٢٩

وابدا من اهم مصادر قوتها . وعلى هذا ، فان مهمة هؤلاء الشعراء لم تكن سهلة ، فكان عليهم ان يواصلوا معركة اسلافهم من الشعراء الثوريين ، مع ان اكبرهم في هذه الايام لم يكن قد اختفى عن شرفة العقد الثاني ، « .. ونحن الشعراء الذين كنا اقل من اصابع اليد الواحدة في حينه ، وكان الشعر لم يتسلق بمداسفل ذقونا الى عوارضنا .. واصلنا الطريق ! نفس الطريق الذي لسم يبداه بل واصله في حينه ابراهيم طوقان وابو سلمى وعبدالرحيم محمود ومطلق عبدالخالق وآخرون .. لقد زدونا ، قبل النكبة ، الزاد الذي استطعنا به ان نسنده بطوننا ، بعدها . ان شعرنا الثوري هو امتداد لشعرهم ، لان معركتنا هي امتداد لمعركتهم :

نفس الخندق - المحبة للارض والشعب

نفس العدو - الاستعمار والضارين بسيفه

نفس الهدف - التحرر الوطني والاجتماعي .

نفس السلاح - الكلمة الجريئة التي ترقص في وجه الضوء ولكن مع اختلاف الظرف التاريخي » (١٥) .

واذا كنا اشرنا الى ما اصاب المجتمع الفلسطيني في المنفى من تمزق وذهول وضياح لشخصيته في اعقاب النكبة ، فاننا ، في نفس الوقت ، يمكننا ان نشير الى ما اصاب المجتمع الفلسطيني فسفي الارض المحتلة او في المعتقل من تمزق وذهول مثله ، ومن ضياح او بالاحرى تجميد لشخصيته مما نرى سمته (بيات الشخصية) ، فقد اضطرت هذه الشخصية ، ولم تكن تستطيع سوى ذلك ، ان تترك فزعة ومقهورة ، الى صمت عميق وواع ، تدرعت به ، كصدف المحار ، ليحميها من بطش العدو ، وويلات عسفه . وكان لا بد في ظروف الاقلية القاسية ، من مرحلة البيات هذه ، وان تمتد فترتها بضع سنوات تجنبا لوطاة الاحتلال الصهيوني الذي يدوس في طريقه كل وعي وحياة . ولذلك فلا عجب ان لم تقع ، حتى الان ، على شعر يصور لنا حياة اول ثلاث او اربع سنوات من عمر النكبة . ولربما في ذلك بعض القصاصد ، ولكنها لم تصل الينا ، او لم يقدر لها ان ترى النور . ومما يرجح ان الشعر في هذه الفترة كان معدوما ، او شبه معدوم على الاقل ، ان اكثر شعراء تلك الفترة نشاطا الان ، مقلون بوجه عام ، وياتي على رأسهم (حنا ابو حنا ، وتوفيق زياد ، وحبيب قهوجي ، وعصام عباسي) . ومهما يكن ، فانه ، في مثل هذه الظروف الشاذة ، ليس كثيرا ان ينتظر الشعر والشعراء مدة اربع او خمس سنوات حتى يستطيعوا اكتشاف بدايات الطريق التي عليهم ان يسيروا فوقها ، خاصة وهم ينكشفون بالتدريج انهم يخسرون ، بالاضافة الى الاهل الذين ابتلثتهم المنافي ، الوطن ، وان كانوا يعيشون فيه وينقرسون في لحمه . وعلى هذا فلربما كان امرا طبيعيا ان يبدأ الشعر الاكثر فاعلية واثرا في تعبيرات ذاتية وصور رومانسية حائلة ، وفي بدايات رمزية مهما بدت ساذجة او بسيطة ، قبل ان يتحول الى شعر صريح في تمرد ومقاومته ، كان يتمثل الشاعر مدينته او قريته فتاة مثلا ، تعبيرا عمليا عن تلك المدينة او القرية ، ومحاولة ، من خلال تلك التعبيرات والصور ، لشد انتباه الناس الى بلدهم والتثبث بترباها والحياة فيها ، كما نرى في قصيدة (قريتي) (١٦) لحبيب قهوجي . ففي جو هدم الصهيونيين القرى العربية ومسحها من الوجود ، وطردهم الفلاحين من اراضيهم فيها ، تدق صور الزهر والغاب والطيور وشبابه الراعي والقطعان والفجر والحقول في القرية ، على شفاف القلب الانساني وفي حرارة ملوغة . واكثر من ذلك ، فان الشاعر في هذا الجو ، يتجرا في ثياب الفن ،

(١٥) المرجع السابق .

(١٦) قيلت القصيدة سنة ١٩٥٣ . وقرية الشاعر هي (فسوطة) في الجليل بشمال فلسطين . وقد حصلت على القصيدة من الشاعر في شكل صورة بالافوست لصفحة المجلة التي نشرت فيها القصيدة .

وتاصيلها معها ، فاستحدثت كثيرا من القوانين التي تبيح لها مصادرة الاراضي العربية الى جانب ما احينه من هذه القوانين التي ورتتها عن حكم الانتداب البريطاني ، ولجات الى نصف عشرات القرى العربية بكاملها لتمحو هذه الوشائج ، واقامت بدل الكثير منها مستعمرات زراعية صهيونية تمكن بها من ارتباط المهاجرين الصهيونيين (بارض المياد !) . وبهذا عملت على تقويض القرية العربية ، قاعدة المجتمع الفلسطيني ، وبنيت المستعمرة الزراعية ، قاعدة للمجتمع الصهيوني ودرسا لكيانها السياسي . وظلت مصادرة الاراضي العربية اكثر القضايا ايلاما في تاريخ عرب الارض المحتلة ، فقد ادى ذلك الى زعزعات وتغيرات عنيفة في اوساط المجتمع العربي . وستظل الارض اساس التناقض العربي الصهيوني في فلسطين ، لا يمكن ان تحل القضية الحل العادل والدائم الا باعادة كامل التراب الفلسطيني الى اهله واصحابه الشرعيين . وفي سبيل سحق الشخصية العربية ومحو انتمائها القومي وتنويبها ضمن الكيان الصهيوني ، لجات سلطات الاحتلال الى استكمال حلقات خطتها بمحاولة مسخ هذه الشخصية واجتثاث جنورها القومية ، بحيث يسهل عليها فيما بعد ان تفرض عليها التهوديد والاهداف الصهيونية دون مقاومة كما كانت تتمنى ، ناسية او متناسية حكمة المعجز في قرى فلسطين التي قدمت الجواب على هذه الامنيات من قبل ان تحبل الصهيونية باسرائيل فقلن « كل شيء عند العطار الا حبني غصب ! » . واتبع في سبيل ذلك اساليب علمية مبرمجة خططت لها على الايام بكل دقة وخبث ، فاخضعت منذ البدء مناهج التعليم ومواد الثقافة العربية لهدف التعليم الحكومي الذي يقوم على اساس قيم الثقافة اليهودية واغراض الصهيونية واهدافها السياسية في فلسطين والوطن العربي ، واصبح هدف التعليم العربي بذلك ، خلق جيل من (العرب الاسرائيليين!) يعتمد عن ثقافته وقيمه العربية ، وينزوع في نفسه روح العممية القومية بحيث تمحي في النهاية شخصيته وهويته الاصيل . وفي هذه الظروف التي عاشتها الاقلية العربية في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، لا بد ان نتذكر ان هذه الاقلية تكون في غالبيتها مزقا من المجتمع القروي الزراعي في فلسطين ، ولم تتوفر لها المجتمع الادبي ولا المستوى الثقافي القادران على توفير المناخ الذي يفرخ فيه وينمو جيل من الادباء والفنانين ، اذ كانت اجيال المثقفين والشعراء الاحياء من عرب فلسطين قد جرفت موجة الخروج الكبير مع من جرفت من غالبية الشعب الساحقة وقذفت بهم في براري المنافي خارج الوطن . « وسرپ النسور هذا ، الذي حملته العاصفة ، خلف وراه فراخا طري العود ، بالكاد يستطيع الواحد منها ان يمسك حفة ريح تحت جناحيه . واكثر فراخ النسور هذه (شهرة) ما كان ليلق شعره بغير ذاكرته هو ، واما اسمه فلم يره اسود على ابيض في الصحف اكثر من مرات لا يتجاوز عددها عند اصابع اليد الواحدة » (١٤) ، وبذلك اهتز جوهر المجتمع العربي الجديد المحاصر بالة التسلط الصهيونية الى اعماقه .

هذا هو المناخ العام الذي كان على شجرة الشعر الفلسطيني ان تنمو فيه وان توصل الابراق والازهار والثمار ، وفيه نستطيع ان نتصور الى حد ما ، قسوة الظروف وقوة الزوابع التي كان على (فراخ النسور) ان تنشر اجنحتها فيها ، ولو ان هذه الزوابع كانت دائما

(١٤) توفيق زياد - مقالة « ملاحظات اساسية حول الشعر العربي

الثوري في اسرائيل » ، وقد نشرت في مجلة الجديد ، المجلد ٨ ، ٩ ، السنة ١٣ (حيفا - تشرين اول ١٩٦٦) . انظر المقالة في كتابه (عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني) وهو مجموعة مقالات طبعت في دار العودة ببيروت - ١٩٧٠) .

فيلبسها على صور من العزم والامال والبأس والنقمة والاحقاد والغضب، مما نلمس لس اليد دلالاتها المقصودة في نفس الشاعر، ووقعها وتأثيرها العميق في نفس المثالي، فنحس بها في هذا الوقت وكأنها غناء المدلج يؤنس القافلة ويعينها بها على سير الليل، فالصور الرومانسية التي يسبقها الشاعر اردية فنية على قرينته وحياتها، وما يعبئها به من ملامح القوة لا تنحو بقصيدته منحى الوصف والطبيعة بمقدار ما تنحو بها منحى فلاحه النفس العربية في الارض المحتلة وبذر بذور التحدي والتمرد في ترابها. وفي قصيدة «الارض» (١٧) يبرز (حنا ابو حنا) «اللامح الفلاحية» في الشخصية الفلسطينية ويرسمها بطين التراب الفلسطيني العاطر الذي يعتبر رفات الاجداد سر خصوصيته الازلية. وثلثي في هذه القصيدة باقدم نص وصل الى ايدينا من شعر الارض المحتلة يتناول صاحبه قضية الارض في فلسطين وبعض مآسيها الدامية، مع ان مأساة الارض بدأت مبكرة في اعقاب النكبة. ونحن، من جانبنا، نود ان نعتبر هذه القصيدة اول متب للملاحم الوطنية الخالصة للشخصية الفلسطينية التي لا تزال في مرحلة التحلل على طريق يقظتها الكاملة، اذ عندما نقرا وصف الشاعر الرومانسي للطبيعة الجميلة ولظواهرها الرائعة في مدينة (الناصر) وضواحيها ندرک السر الذي يكمن في ذلك الوصف المحبب الذي يقرب الارض والبلد من نفوس الناس ووجدانهم، ويزيدهم ارتباطا والتحمنا بهما، وكأنه يود ان يضيئ ذوب هذه الطبيعة شرابا طهورا يمتزج بدماء القلوب. وشبهه بهذا الشعر في خلقه روح المقاومة في النفس العربية، ما حاول به (توفيق زياد) تفتيح هذه النفس على الافاق الانسانية لتشهد نماذج من تمرد الشعوب الشرقية المستقلة على ظالمها من الحكام والمستعمرين. وتعتبر قصيدته (عبدان) (١٨) و«مصر ١٩٥١» (١٩) نموذجين مبكرين عرض فيهما توفيق اطرافا من نضال شعوب الشرق، ومن المهم ان نشير الى ما في القصيدتين من انفتاح مبكر على نضال الشعوب على مستويين: الافق القومي والافق العالمي. ولربما كان هذا انفتاحا صغيرا في حينه، ولكنه سيكون له اهمية كبيرة عندما يتسع في المستقبل ويأخذ مجراه المؤثر لطبع شعر المقاومة في الارض المحتلة بطابع انساني وقومي معا. ونستطيع ان نقدر اثر هذا الشعر وقيمه النضالية على حقيقتها اذا ما عرفنا احوال شعوب الشرق في مطلع النصف الثاني من هذا القرن ومشاعر الاقلية العربية تجاه تحرر هذه الشعوب من الاستعمار وعملائه، حكام المنطقة الذين كانوا معه سبب بلائها ومآساتها، والتخلص منهم، بلا ريب، بشير خير لوضع حد للظلم الذي رفعوا هياكله فوق الارض المقدسة. واذا كنا نعتبر نهاية النصف الاول من الخمسينيات مرحلة تملل مرت بها الشخصية الفلسطينية في الارض المحتلة تلت مرحلة البيات التي سيطر عليها الذمول في اعقاب النكبة، وقد قابلتها في المنفى بداية مرحلة البحث عن الشخصية، فان مطلع النصف الثاني من الخمسينيات كان بداية اليقظة الحقيقية التي امتدت حتى بداية الستينيات خالقة في هذه الفترة مدا ثوريا ذا اثر جماهيري نام وفاعل ازدادت معه يقظة هذه الشخصية الى حد الوعي العميق على واقعها، فقد تبلورت معالم الانتماء النضالي مع مطالع الستينيات بتأثير المد القومي والثوري المتصاعد الذي طغى على المنطقة العربية، وبتأثير الاتصال الاقوى والاثق بالفكر والادب العربي عن طريق وسائل النشر والاعلام، ثم بتأثير التجربة الطويلة التي قاساها عرب الارض

(١٧) نداء الجراح (منشورات مكتبة عمان - الطبعة الاولى.

١٩٦٩) : ٤١

(١٨) + (١٩) اشد على ايديكم (مطبعة الاتحاد - حيفا .دون

تاريخ والمرجح أنه ١٩٦٦) : ١٣٩ ، ١٤٤ ، ديوان اعمال الشاعر (طبعة دار العودة - بيروت) : ١٥٩ ، ١٧٤

المحتلة ، حتى نحس في هذه الفترة بوضوح مفاهيم الشعر وتبلور موضوعاته ومهماته في اذهان الشعراء اكثر من اية فترة سابقة . وهكذا تحمل الشعراء منذ وقت مبكر مسؤولية كبيرة في ايقاظ اهلهم وحفظ تماسكهم وتوازنهم فوق ارضهم ، فراحوا يتلمسون كل السبل لايقاظ شعبيهم وتميق وعيه على هويته الوطنية بتحسسهم ملامح النكبة (٢٠) وجراح الشعب في المذابح (٢١) التي فرضها الحكام الصهيونيون عليه ، (و قروح الارض) (٢٢) ممثلة في عشرات القرى المسوفة التي ظلت تدمي قلوب العرب هناك . وقد راوا في ملامح التراث (٢٣) الشعبي الفلسطيني ما يبلور هذه الهوية ويجسدتها في النفوس ، فدأبوا على ابراز هذا التراث بجمعه ونشره وصياغة بعض اطرافه بالفصحى لحفظه من الضياع ، كما وجدوا في عنصر الارض ودعوة الصمود والبقاء عليها ، وفي معركة عودة الاهل المنفيين، ما ينهض بشخصية شعبيهم ويعمق وعيها على واقعها ، ويستكمل ملامح هويتها الوطنية التي ظل حكامهم يحاولون سحقها . ويقف شعر الارض بالذات شاهدا على اصالة روح المقاومة وفحواها في شعر المقاومة في الارض المحتلة ، وقد مثلت الارض وما تحمله من معالم الطبيعة من خلال تعامل الانسان معها رموزا حية وخالدة في هذا الشعر بشكل عام ... فهي الام وهي الحبيبة وهي المشوقة وهي المهرة الجماحة . كذلك كان معركة الصمود والتشبث بالارض التي تحمل الشعر مهمتها في مجابهة جميع مخططات العدو من اهم ملامح هذه الهوية الوطنية ، وبها جسد الشعراء الاضطهاد القومي الذي تعرض له شعبيهم حتى لقد استحال ارضهم الى غابة من الصلبان رمزا على الام اهلهم وعذابهم ، واستخدموا رموزا متعددة في معاركهم هذه سخروها في اغراض النضال ، فجمعوا بذلك بين الفن والثورية، واغتنى كل منهما من الاخر . والى جانب ذلك ، فقد خاضوا ، في نبل وشجاعة ، معركة انتمائهم القومي ضد محاولات الصهيونية محو هذا الانتماء ، من خلال مشاركتهم الصادقة في كل احداث الامة ، وقد وسم شعرهم حساسية شديدة ووعي رشيد بالتاريخ وایمان بجبروته، فكانوا ، اذ يفيئون اليه يجدون فيه دوافع اعتزاز وفخر يستجدون بها لتحفظ عليهم تماسكهم امام هوة العدمية القومية التي حفرتها لهم سلطات الحكم العنصري الصهيوني ، وكان (سميح القاسم) شاعر القومية كما كان (محمود درويش) شاعر الارض وزيادة على ذلك فقد ابرزوا في شعرهم الوجه الانساني لنضال شعبيهم من خلال فهمهم الواعي للصلة العضوية بين معارك الشعوب ووحدتها والتضامن فيما

(٢٠) انظر قصيدة (مقاطع) لسالم جبران في (ديوان الوطن المحتل)

جمع يوسف الخطيب : ٥٤٤ وفي كتاب « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » لسان كنفاني : ١٢١ .

(٢١) قيلت مجموعة من القصائد في هذه المذابح المدينة، انظر منها قصيدة « كفر قاسم » لتوفيق زياد مجموعة « ادفنوا امواتكم وانهضوا » : ٢٧ : وقصيدة ، (نداء الجراح) لحنا ابي حنا ديوانه : ٧٧ وقصيدة (ازار الدم) لمحمود درويش - ديوان (آخر الليل) . وقصيدة « الفلة الحمراء » لراشد حسين - ديوانه (صواريخ) - مطبعة الحكيم - الناصرة ١٩٥٨ - : ٢٣ .

(٢٢) انظر قصيدة « كرميل » لسميح القاسم - ديوان (اغاني الدروب) : ٦١ وقصيدة « الحزن والغضب » لمحمود درويش - ديوان (اوراق الزيتون) : ١٠٦ .

(٢٣) اقرأ بعض اعمال توفيق زياد في هذا الميدان ، ومنها قصيدة (سرحان والماسورة) . انظرها في ديوان اعماله الكاملة : ٣٤٤

بينها ، فنقلوا قضية شعبهم الى ديوان الشعر الانساني مما اكسب شعرهم ، بعمق تقوقمه على ذاته ، وبعمق انزاله عن ظروفه وعالمه ، ومن خلال الديالكتيكية الفعالة التي اتسم بها ، روحا وصفاء انسانيين ، كانا من انقى خصائصه واحلى شمائله ، فائرى بذلك التراث الانساني من خلال مقاومته النبيلة ، وكبحه جراح الحقد الانساني الاسود ، فلم تظهر فيه اية نزعة شوفينية يبدو فيها بغض الانسان ، او حتى بغض اليهودي كيهودي ، على الرغم من كنوز الحقد والبغضاء التي دفن الصهيونيون فيها نماذج مشوهة للشخصية العربية عبر تراثهم الادبي والفني .

وعلى الاجمال ، فان اجتماع هذه الابعاد كلها في شعر المقاومة في الارض المحتلة لدليل على عمق الالتزام الواعي الذي ظل هؤلاء الشعراء يحسونه تجاه قضيتهم وقد تسلطت عليهم هموم مسؤولياتها بابعادها المختلفة ، فظلت في اطار هذه الابعاد بمثابة المحور او قطب الرحى الذي تلقتي كلها عليه وتعمل في خدمته ، يقينا بان العدو ، كما يراه الضمير الشعبي ، شيء عابر وعرض سيزول حتما . وبهذا اليقين ارتفع هذا الشعر عن مستوى النواح والتفجع واليأس وظل بشيرا بالنصر ، يرد على مزاعم الاداب الصهيونية ودعاواها حول (الشخصية العربية) ، ويقدم نموذج المناضل العربي ، والاديب العربي الراسخ في مبدأ الالتزام ، والجسور في المقاومة والنضال . ففسي واقعهم القاسي ، حيث عاش هؤلاء الشعراء في قلب النار بلحومهم واذنانهم ، جنباً الى جنب مع شعبهم ، تمكنوا ، بسبب تماثل ابعاد حياتهم ، ووضوح اهدافهم وتحددها ، ان يستغلوا هذا الواقع في اغناء تجربتهم وتجسيد معاناتهم الفنية ، فجاء شعرهم شعر نضال جسد ابعاد البطولة الحقيقية ، وازدهر من خلال كي التجربة، وبجمعهم بين صبوتي الشعر والنضال بالرفض والاصرار والامل ، فقد جمعوا بين التول والفعل في معركة مباشرة مع عدوهم الحقيقي ، مما فرض عليهم ان يبنوا جانباً الندب والصراخ ، ويلجأوا ، في هذه المعركة الحقيقية ، الى وعي العقل والعاطفة معا ، الامر الذي اشعل في شعرهم نيرة الصدق ، واعلى صوت الضمير ، وانصح في نفوسهم ما حذقوه من مادة التراث التي وصلت الى ايديهم ، وعملوا على صقلها وتطعيمها بما اطعموا عليه من تراث شعر الاحتجاج والمقاومة العالمة ، دون ان ينسوا ابراز ملامح الشخصية الفلسطينية في شعرهم . يقول محمود درويش « وانا اعتبر نفسي امتدادا نحيلاً بملامح فلسطينية لتراث شعراء الاحتجاج والمقاومة ابتداء من الصعاليك حتى حكمت ولوركا وارانغون الذين هضمت تجاربهم في الشعر والحياة وامدوني بوقود معنوي ضخم ». (٢٤) ويختلف شاعر الارض المحتلة في واقعه هذا عن رفيقه الذي حيل ، في النفي ، بينه وبين عدوه الحقيقي بجدران الانظمة العربية الصلدة ، عازلا له عن ميدان الفعل ، فتبدد الكثير من طاقاته ، حبيسا ، في معارك جانبية فرضت على معظم اعماله الندب والصراخ .

ومما يلفت النظر في شعر الارض المحتلة المقاوم تلك الروح الواعدة بالامل والتفاؤل ، حتى كان مزاج اصحابه ظل فرحاً مستبشراً دائماً ، يفره ، على عادة الثوريين ، احساساً بالتفاؤل الثوري ، اعانهم على صمودهم ، وبعث في نفوسهم الاحتقار والاستهانة بالظلم الطارئ المنصب عليهم في شتى اشكال الاضطهاد وصور القهر والعذاب . ولم

(٢٤) مجلة الطريق ، العددان ١ ، ١١ (تشرين ٢٢ كانون ١ - ١٩٦٨ ، بيروت) : ١٩ انظر ايضاً كتاب « شيء عن الوطن » طبعة دار العودة - بيروت) : ٢٧٣

يكن هذا التفاؤل بلا سند او دون مقومات ، فقد قام على اساس من الشعور الواعي وغير الواعي بالانتماء القومي العربي ، وعلى المعرفة البسيطة الصادقة بحقيقة القضية وعدالتها ، وعلى الحس التاريخي الواعي والمؤمن بحتمية العنل التاريخي في النهاية . وقوى هذه الاسس واكدها في نفوسهم معرفتهم الواسعة بالاخبار والقصص الدينية التي استقلوها استفلالاً حسناً في شعرهم ، وضربوا بها الامثال على صدق تفاؤلهم ، ووجوب مقاومتهم . وكذلك ، فقد امدت بعضهم الايدولوجية اليسارية بزاد من الثقافة وبشمولية في النظرة المستقبلية ما وضع في ايديهم نظرية مرشدة قامت على اساس الايمان بالنهج الاشتراكي العلمي ، فانارت لهم الطريق بمستوى ما يبصرون ، وانقذت عملهم من العمى ، وجنبت شعرهم ، بمحتواها الاجتماعي ، ان يكون مجرد رد فعل مباشر وغير واع لاضاعهم ، فاحصته بالتفاؤل الثوري الذي تجاوز به مجرد رصد الاحداث ، وبلغ مستوى الزيادة التقدمية ذات التأثير والفاعلية ، الامر الذي ملا حياتهم بيقين النصر في النهاية . وبهذا اليقين تسلطت على عقولهم فكرة البعث من خلال الموت من اجل المستقبل والغد الاجمل . فهم يرون في موتهم حياة شعبهم ، وفي مخنة شعبهم وعذابه خلاص الامة واحياء فلسطين باعادة بنائها مطهرة من جديد ، بروحها العربية الاصيلية ، وبحضارتها الانسانية العريقة . ولئن لم تبرز الدعوة الى تقويض كيان الدولة الصهيونية سافرة في شعر هؤلاء الشعراء المقاومين ، بحكم الظروف التي يعيشونها ، فاننا نستطيع ان نتلمس هذه الدعوة ذاتها متضمنة في روح شعرهم في شكل رفضهم مضمون الدولة واسسها القائمة على العنصرية والطائفية والقهر والاختصاب والاستيطان . والشاعر عندما يناضل ضد هذه المقومات التي تكون في مجموعها الدولة الصهيونية ، فهو يحارب ، بحق ، حقيقتها واصل وجودها ، ليجردها من مقوماتها الاساسية التي اصطنعت عليها ، ولا يمكن ان تستمر دونها ، ولا معنى لاستمرارها بفقد هذه المقومات . اما ما يمكن ان يحدث بعد ذلك ، فليس من شأن الشاعر ان يقوم بحصر جزئياته وتفصيلاته ، لان ذلك من شأن السياسيين ، ويكفي الشاعر ان يشجع الامل ويحث على المقاومة من خلال الالتزام الواعي بقيمة الكلمة في المعركة ، وبادراك مسؤوليتها دون أي استخفاف او استهانة تشوب قدسية دورها ، او تهز اثر فعلها .

وشعر المقاومة في مجموعه يرفد نهر الشعر العربي الفلسطيني السابق عليه والمعاصر له ، ويصب معه في بحر الشعر العربي الواسع ، حيث اثره ، منذ العشرينيات ، بكثير من العطاء والخير ، في الوقت الذي تآثر تأثراً واضحاً بتياراته القديمة والحديثة ، فهو يمشي متسوقاً معه في توجهه وفي سماته الفنية . فقد ظل ، مثله مثل الشعر العربي كله ، يحافظ على روح التقليد والكلاسية مع ما توفر له من سمات التجديد الهينة حتى الخمسينيات ، حيث بدأ تيار الشعر القائم على وحدة التفصيلة ، فارتبط به بشكل عام ، وان لم نعم الشعر الكلاسي ، ثم ارتقى معه بعد ذلك الى الاتكاء على كثير من عناصر التجديد التي سخرها البعض في خدمة شعر المقاومة ، لزيادة اثره في النفس وتعميق فعله فيها واطالة مداه . واذا كان الشعر الفلسطيني يحمل ملامح الذات الفلسطينية وهويتها الخاصة في نكبتها وجميعها اكثر من سواه ، فلان اصحابه هم الذين انغمروا في بحر قضيتهم ، فخرجوا وعلى وجوههم وفي قلوبهم ملحها المرير .

ولم يكن مفهوم المقاومة في شعر العامية الفلسطينية اقل بروزاً وتحدداً منه في شعر الفصحى ، فقد شابه شعر العامية ، وهو فلسفة من الوجدان الشعبي الاصيل ، شعر الفصحى في مقاومة التحسني

عروبة الوطن ، حتى لنحس ، من هذه النواحي ، بالتكامل العضوي بين نوعي الشعر المقاوم كليهما ، فبدأ هذا الشعر ، في مجموعة ، كانه بحر شاسع ممتد ، يقودك متن أمواجه ، من أي الشواطيء ركبتها ، الى مرفا واحد ... مرفا التحرير والعودة والوحدة .

وهكذا ، فان شعر المقاومة الفلسطينية ، بكل ابعاده وخصائصه ، وبتجسيده الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، وبحفظه هروبة هذه الشخصية ، وابرازه انسانيته ، لا يسعى فقط الى هدم واقع سلبي غريب فرض على الوطن والمنطقة العربية ، وانما هو يقصد اعمار الحياة الانسانية التي هدمتها المنصرية الصهيونية والامبريالية العالمية في الديار المقدسة ، واعادة بناء امجاد الانسان بتغيير الامر الواقع ومحو مفاصله . وهو ، بروحه الوطنية والقومية والانسانية ، وباتجاهاته التقدمية التي اتسم بها ، وبرسالته النضالية التي حملها ، يعتبر في كثير من جوانبه ، عمراننا فنيا ، وصرحا حضاريا يثري تراث العرب والانسانية بخير ليس بالقليل ، ولعله ان يكون قد شارك ، الى جانب تراثنا الحضاري ، في حفظ توازن الامة وتماسكها بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ ، فقد كان هذا الشعر في كثير من آثاره الهادي والانيس للجماهير العربية التي كادت تسقط في هوة الياس ووهنة الانهيار ، لولا بقية من تراثنا العريق ايقظتها على هدمتها هذا الرفيق الهادي ، فاحتضنته كما يحتضن الرفيق عجلة انقاذ ، واستبشرت به كما يستبشر الساري باول الضياء .

حسني محمود حسين

الجزائر

الذي فرض على الوطن ، ومنذ وقت مبكر من هذا التحدي ، فتوفر كثير من الانسجام والتساقق بين الموضوعات التي عالجه كلا الفئتين ، اذ هب ابناء الوطن معا يلبون عناصر مقاومتهم ضد الاخطار التي تعرض لها وطنهم ، فمر الجميع في المواقف نفسها ، وخضعوا لمؤثرات واحدة ، فلم يكن غريبا ان يتناولوا في شعرهم موضوعات واحدة تقريبا . وقد تناول شعر العامية بعض الموضوعات التي لم يتناولها الشعر الفصيح ، فعبر عن ضمير الشعب في تعظيم ابطاله وشهادته ، وفي وصف معارك الثورة بروح ملحمية مؤثرة ، وتحدث عن البندقية ومدلولاتها باهتمام خاص ، كي يخلق من ذلك كله روح القوة والثورة في نفوس الجماهير . ولقد يظل تحدي السلطات اكثر يسرا على الشعر الشعبي ، لانه لا يخضع لرقابتها وهو يتناقل ويحيا بين الجماهير بالشفاهة وليس بالتدوين . والى جانب ما عكسه من روح القوة والثورة ، فقد عكس شعر العامية شعور الحزن الشعبي الذي ربما كان اكثر عمقا مما هو في شعر الفصحى ، لان جماهير الشعب العادية التي يمثلها الشعراء الشعبي تمثيلا اكثر صدقا ، هي التي عانت مما لحق بالوطن من ويلات ، وتحملت من متطلباتها المادية والمعنوية ، اكثر من الطبقات الاخرى . ولم يقتصر هذا الاتفاق بين شعر العامية وشعر الفصحى على مرحلة دون اخرى من المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية ، فقد استقت موضوعاتها ومواقفها الملزمة الواعية في عهد الوجود الانكليزي ، وفي المنفى ، وفي ظل الانتصاب الصهيوني ، فظلا يعملان معا على سلامة الشخصية الفلسطينية وتعميق وعيها على واقعها ، لتجيا بروح العروبة والعمل على حماية الوطن ، وعلى امل التحرير والعودة ، ومن خلال روح الالتزام والمسؤولية لم ينس شعر العامية كذلك ان يحفظ على هذه الشخصية انتماءها القومي ، وان يحملها رسالتها في حفظ

ماركيز

أو

فلسفة الطريق المسدود

تأليف محمود أمين العالم

يعتقد المؤلف ، وهو واحد من كبار المثقفين التقدميين العرب ، ان الفكر العربي المعاصر فكر مأزوم لانه يفتقد النظرية العلمية الواضحة والخبرة العملية المتنامية . و « في سعينا المأزوم الى الوضوح الفكري ، الى التحرر الوطني والاجتماعي ، الى الوحدة القومية ، كانت تطل علينا بين الان والآخر صيحات تزعم فسي نبراتها العالية نبوة الخلاص . على انها لم تكن تفعل شيئا غير ان تضاعف من محنتنا ومن ازمئتنا ... برجسون .. سارتر والوجودية ... الوضعية المنطقية والبرجماتية ... واخيرا تطل علينا الماركيزوية لتقدم نبوءة جديدة للحرية (...) ولكنها في الحقيقة تسعى لتطمس الوعي الصحيح بحقائق حياتنا ووقائع عصرنا ، وتدفع بفكرنا ونضالنا الى ما نزع انه طريق مسدود . »

وهكذا يكون هذا الكتاب ادانة كاملة لفكر ماركوز ، وهذه الادانة قائمة على دراسة لآثار ماركوز ومواقفه . وكما سبق لدار الآداب ان قدمت بعض آثار ماركوز للقارئ العربي ، من غير ان يعني ذلك بالضرورة تبنيها لهذا الفكر ، فانها تقدم اليوم نقدا لهذا الفكر بقلم مفكر عربي ماركسي ، من غير ان يعني ذلك بالضرورة ايضا انها تقر وجهة نظره ، هذه الوجة التي هي قابلة حتماللتقاش .

صدر حديثا